

الصوم
شاحن وكابح

١

obeikandi.com

الصوم.. شاحن وكابح

في شهر رجب ١٤٢٦ هـ زارني رجل أعمال كبير من أثرياء العالم؛ لإنجاز عمل مهم في إحدى مدن القصيم، وبعد الاتفاق على خطة معالجة الموضوع، طلبت منه تحديد موعد لاحق خلال أسبوعين؛ لمناقشة ما تم إنجازه، فاعتذر بأن جدول أعماله في شعبان لا يسمح بذلك بسبب أن مديري قطاعاته المتعددة ينهكونه في هذا الشهر؛ لعلمهم أنه لا يستجيب خلال رمضان لطلب الاجتماعات، حيث يخصص في ذلك الشهر وقتاً أكبر للعبادة.

وقد لاحظت خلال ثلاثين عاماً من العمل في قطاع البلديات أن أصحاب المشروعات والأعمال يخفّ شحّهم وحرصهم في هذا الشهر عن غيره.

وعلى صعيد مشابه عانت إحدى قريباتي صداعاً عنيفاً متصلاً أسابيع عدّة، لم تفلح معه أدوية الصداع التقليدية، وهذا دعانا إلى طلب مشورة طبية من مركز متقدم، فتوجهنا إلى مدينة الرياض، وراجعنا استشارية سعودية، وبعد الاستماع للشكوى وإجراء بعض الفحوص الروتينية طمأنتنا، وقالت: أولويتنا الأولى هي كسر هذه الدوامة (breaking the cycle) ثم وصفت لنا علاجاً مختلفاً تماماً عن علاجات الصداع التقليدية، غرضه فقط كسر هذا الداء المستمر.

هاتان الحادثتان ذكّرتاني بشهر رمضان، فبعد مغادرتنا هذه العيادة، وبعد نجاح خطة علاج هذه الدكتوراة، والله الحمد بدأت أستحضر دورة الحياة وضرورة كسرها، كلما هَلَّ علينا شهر رمضان، إنه يشبه الدواء الطبيعي الرائع للذي يدور بلهف حول شهواته الدنيا.

والحقيقة أنه ليس في الإسلام أمر ينهى عن العمل في شهر رمضان أو التقليل منه، بل إن حوادث كبرى للأمة وانتصارات حاسمة تمت في هذا الشهر، ولكن المهم أن نفرق بين أعمال عظيمة قصد بها وجه الله تعالى والنفع العام وأعمال ذات نفع فردي يرسخها الشح.

أعتقد أن إحدى وظائف شهر رمضان الجليلة هي تهدئة الاندفاع البشري نحو المطالب الدنيوية، إنه يشبه الكابح (الفرامل) في السيارة، فعندما تزيد سرعة السيارة عن السرعة الآمنة لا بد من كبح يعيدها إلى السير بأمان، وهذا أحد الأدوار المهمة التي يعالجها هذا الشهر العظيم كل عام، إضافة إلى كبح الشهوات ذات الطابع البيولوجي في الإنسان، وهي مسألة واضحة في الصوم، ولكن الملاحظ هو ذلك الهدوء النفسي وانخفاض حدة السعار المادي الذي يفسد حياة الناس.

في كل عام يضغط رمضان كوابحه على إيقاع الحياة؛ ليعيد توجيهها نحو أهدافها السامية دون أن يحرم عمارة الأرض من نفع الإنسان.

رمضان منارة لإعادة توجيه دفعة قارب النجاة، إنه علامة مرجعية واضحة في طريق الحياة تؤكد إعادة الحسابات والبحث عن الاتجاه الصحيح.

وضعت الحضارة الغربية منذ نجاح حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، وما أعقب ذلك من نجاح كبير للرأسمالية، الإنتاج بوصفه قيمة عليا وهدفاً أسمى، وأصبح مرجعاً للإنسان؛ ليقس به نجاحه وإنجازاته.

ثم بدأ حكماء الغرب يراجعون هذا التوجه، وقد ظهرت كتابات كثيرة تحت كل إنسان على مراجعة مستمرة لأولوياته في الحياة وعدم التركيز على الحياة المهنية مثلاً أو جمع المال أو تحصيل مركز اجتماعي مرموق، وقد كتب في هذا الموضوع عدد كبير من الكتب، ربما يكون أحد أشهرها كتاب ستيفن كوفي «الأهم أولاً» وهو يحكي بشكل

تراجيدي قاسٍ عن عدد كبير من الرجال والنساء في الغرب الذين ركزوا على حياتهم المهنية، ونسوا الجوانب الأخرى في الحياة، ثم أفاقوا في وقت متأخر.

نعود إلى رمضان، إنه دورة تدريبية لضبط الاتجاه وتقوية الأهداف وتخفيف سرعة إيقاع أحداث الحياة؛ حتى يمكن التعرف إليها ومراجعتها، فربما أن الحياة إذا كانت تسير بأسرع مما نستطيع إدراكه، فهي تفقدنا القدرة على فهمها وتصحيح الانحراف في الاتجاه، وكما قال حكيم لأحد الباحثين عن السعادة:

«تمهل قليلاً؛ إن السعادة تحاول اللحاق بك».

وقد بالغ بعض أفراد مجتمعنا بتقمص طريقة الحياة الغربية الموجهة نحو الإنجازات والنتائج والنمو بطريقة لا توازن فيها، فاشتبهت حالنا بطريقة الحياة الغربية، كمن وُضع على سرج فرس جموح دون أن يسلم اللجام، وهو لا يجيد ركوب الخيل، والنتيجة قلق وخوف وسعي لاهث دون أي اتجاه، وربما سقوط قاتل.

رمضان يسلم لجام الفرس للفارس؛ ليعيد توجيه الحياة، ويضبط سرعة إيقاعها.